



- ١ -

أشرنا في حلقة الأمس (اليوم، غدا، 12-3-2013) إلى أن تفجير الحروب الأهلية المذهبية في أنحاء الشرق الإسلامي، كانت الطريقة الأمثل لتجيئ سهام "الإرهاب" بعيداً عن صدور الغربيين وقريباً نحو صدور الشرقيين.

وبما أن الإسلام منشطر إلى سنة وشيعة منذ نيف وألف سنة، كان من المغربي كثيراً طلي تبادل الاجتهادات بينهم باللون الأحمر الفاني. والمدخل إلى كل ذلك كان، ولا يزال، العراق.

لكن، لماذا العراق؟

في 8 آذار/مارس الحالي، ألقى المحلل البريطاني في "فايننشال تايمز" ديفيد غاردنر بعض الأضواء على السبب، حين ركز على النقاط التالية:

- **التحالف الغربي**، بدخوله العراق وتفكيكه، قلب موازين القوى في أكثر مناطق العالم التهاباً، ليس لأنه أطاح نظام حسين، بل لأنه أوصل الأقلية الشيعية في داخل العالم الإسلامي (والتي هي أغلبية في العراق) إلى السلطة في قلب المنطقة العربية للمرة الأولى منذ سقوط الخلافة الفاطمية العام 1171.

- وهذا، إضافة إلى أنه أسفراً عن حمام دم في العراق، أشعل مجدداً نزاعاً عمره ألف سنة بين السنة والشيعة، امتد من المشرق العربي إلى شبه القارة الهندية.

- أحداث العراق غيرت بالفعل مقومات المنطقة، وهي كانت أخطر بكثير من مضاعفات حرب السويس العام 1956 لأنها أعطت زخماً لكل ألوان وأنواع الحركات الإسلامية.

- ٢ -

تحليل دقيق؟

أجل. لكن، يجب أن نضيف إليه عامل آخر لا يقل أهمية.

فأرض العراق في الواقع رأس جسر ممتاز ونموذج لتجغير العالم الإسلامي من داخله، لأنها كانت المسرح الرئيس للأمسية التاريخية لآل البيت على يد الأمويين. كما أنها كانت ساحة المعركة الرئيسة بين العثمانيين والصوفيين طيلة قرنين من الزمن (العراق آنذاك كان يصبح صفوياً فارسياً في الشتاء، وسنياً تركياً في الصيف!).

القسمة الدموية السنوية - الشيعية انطلاقاً من العراق منذ غزوه العام 2003، حفقت، وستتحقق أكثر، جملة أهداف إستراتيجية غربية واحدة. فهي شطرت الشرق الأوسط الكبير إلى شطرين كبارين متناحررين. وهي جعلت إيران في حال صدام ليس مع أميركا وحسب، بل (مجدداً) أيضاً مع تركيا وباقى أطراف الغالبية السنوية في العالم الإسلامي. وبالطبع، حين تناصر جمهورية الخميني على هذا النحو، لن يطول الوقت (مجدداً أيضاً) قبل أن تبدأ البحث عن حلفاء لها في الغرب. وهذا بالتحديد ما فعله الصوفيون طيلة القرنين 18 و19.

وأخيراً، حروب السنة والشيعة قد تقلب صورة الصراع مع إسرائيل رأساً على عقب. ويكتفى للتدليل على ذلك تخيل، مثلاً، مصير مواجهة "حزب الله" المصيرية مع إسرائيل، إذا ما جرّه الغرب إلى صراعات طائفية مع السنة في لبنان وسوريا.

- III -

الغرب، مراكز أبحاث كما مؤسسات سياسية، يمارس هذه الأيام "سياسة تاريخية" (إذا ما جاز التعبير) في العراق وبقية العالم الإسلامي. سياسة تنطلق من الحقيقة بأن الحرب الأهلية السنوية - الشيعية في القرن الأول الهجري أدت إلى أول شرخ ضخم في جسم الأمة؛ وإلى إغلاق باب الاجتهداد لدى السنة في القرن الثالث عشر الميلادي، وإلى التقية والتقوّع لدى الشيعة.

كما أدت أيضاً إلى الحروب العثمانية - الصوفية التي اعترف كبار المفكرين الإسلاميين الإيرانيين، وفي مقدمهم علي شريعتي، بأنها كانت الخطأ القاتل الأكبر في تاريخ بلادهم.

كل هذه الأحداث المأساوية أسفرت، كما هو معروف، عن شل طاقات الأمة وجعلها لقمة سائفة أمام الاجتياحات الخارجية، بدءاً من الصليبيين والمغول، مروراً بحروب الأندلس والبلقان، وانتهاء في العصور الحديثة بالاجتياحات الاستعمارية الأوروبية.

لولا الحروب الأهلية السنوية - الشيعية، لما أصيّبت الحضارة الإسلامية بالجمود والمرادفة في المكان والزمان (عند السنة)، والتقوّع (عند الشيعة). ولولا هذه الحروب، لما سيطر المتطرفون من كلا الطرفين على جداول الأعمال السياسية والأيديولوجية طيلة أكثر من ألف عام.

**آثار أقدام "السياسة التاريخية" الغربية مبثوثة في كل مكان، وهذه بعض ملامحها في الولايات المتحدة:**

• مارتن كرامر (باحث في "مossسة واشنطن لدراسات الشرق الأدنى") : "في معظم الإمبراطوريات الديناميكية الإسلامية، عقد لواء الحكم للأقليات. والآن، رسالة المقرّطة (من ديمقراطية) هي أن حكم الأقلية بات من مخلفات الماضي، وهذا سيعني بالنسبة للشرق أوسطيين تغيير موازين القوى بين مختلف المجموعات الطائفية والأثنية، وإطاحة هرميات اجتماعية أقيمت قبل ألف عام عبر الصراعات الداخلية".

هل هذا سيعني نصف مقومات الدول الراهنة في المنطقة؟

كرامر يرد بالإيجاب بسرعة، منطلاقاً من "نموذج" العراق، حيث سكان المثلث السنوي يحبون قبائلهم، وبدلًا من الديمقراطية يفضلون حكم الشيخ على رأس كونفدرالية على النمط القبلي. وحيث الشيعة يميلون إلى حكم رجل دين معمم. ما تريده هذه المجموعات هو حق "الحرية الجماعية" المشفوعة بانحسار الدولة. على الولايات المتحدة، برأي كرامر، "الاعتراف

باستقلالية المجموعات الاجتماعية والدينية والطائفية".

• سونر كاغابتاي ( رئيس " برنامج الأبحاث التركية " الأميركي): الإسلام لا يزال منغمساً في تاريخ الشكوك العميقة بين الطائفتين السنوية والشيعية. ولذلك، وقبل الدعوة لقيام حوار بناء بين الإسلام والغرب، على المسلمين أولاً احترام بعضهم البعض. بكلمات أوضح، الطريق إلى توازن إقليمي بين الإسلام والديانات الأخرى، يمر عبر محاولة إقامة السلام داخل الإسلام".

• موشي ماعوز (مؤسسة واشنطن لدراسات الشرق الأدنى): "الأقليات الدينية والإثنية أثرت بشكل عميق على التطورات في الشرق الأوسط طيلة القرنين الماضيين. وما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة هو أن تشجع وتدعم تشكيل تحالفات بين هذه الفئات استناداً إلى أنظمة فيدرالية ديمقراطية".

• والي نصر (باحث في " دراسات الشرق الأوسط "): التمرد (المقاومة العراقية) جذب المتطرفين من كل المنطقة العربية إلى الجهاد ضد أميركا. لكن جوهر المسألة يكمن في الواقع في الحرب التي تعود إلى قرون عدة، بين السنة والشيعة. وهذا أمر " أجبرت " أميركا على الاعتراف به أخيراً، ومعه الاعتراف بمركزية الحقائق الطائفية".

\* \* \*

• كيف ترجمت هذه "السياسة التاريخية" الغربية نفسها على المستوى العربي؟

يتابع...

اليوم غدا

المصادر: